الحكمة في مخلوقات الله

عز وجل

لحجة الإسلام الإمام أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد الغزالي

قدس الله روحه

الناشر

محمد عثمان

PETOK I/5 MOJO KEDIRI 64162

الحكمة في مخلوقات الله

عزّ وجلّ

لحجة الإسلام الإمام أبي حامد
محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي
قدس الله روحه

يطلب من المكتبة العثمانية كديري

قل انظروا ماذا فى السموات والارض

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل نعمته فى رياض جنان المقربين، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر فى مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين فى قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه، وتحققوا أن لا اله الا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط فى جميع الاحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال فى كتابه الكريم، شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وامام المتقين، وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى اله وصحبه وشرف وكرم الى يوم الدين.

(امابعد) يا أخي وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين انه لما كان الطريق الى معرفة الله سبحانه والتعظيم له فى مخلوقاته، والتفكر فى عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبها العقول أرباب الالباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التى يشير اليها معظم آي الكتاب فان الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر اربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب فى مصنوعاته لقوله سبحانه - قل انظروا ماذا فى السموات والارض - وقوله - وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون - الى غير ذلك من الايات البينات والدلالات الواضحات التى يفهمها، والمسترقى

في اختلاف معانيها يُعَظِّم المعرفة بالله سبحانه التي هي سَبَب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحُسنىٰ وزيادة. وقد بوّبته ابوابا يشتمل كلُّ باب على ذِكْر وجهِ الحكمةِ من النوع المذكورِ فيه من الخَلْق ونحو ذلك حسب ما تنبّهت له عقولنا فيما أشرنا اليه، مع انه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى وما وضع من الحِكَم في مخلوقٍ واحدٍ من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب الله سبحانه لكلٍّ منهم وما سبق له من ربه سبحانه. والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده.

باب التفكُّر في خلقِ السماءِ، وفي هذا العالَم

قال الله تعالى: أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج - وقال سبحانه وتعالى - الله الذي خلق سبع سموات الاية - اعلم رحمك الله أنك إذا تأمّلت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيتِ المبني المعَدّ فيه جميع ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف، والارض ممدودة كالبساط، والنجوم منصوبة كالمصابيح. والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شئ من ذلك مُعدّ مهيّأ لشأنه. والانسان كالمالك للبيت المخوّل لما فيه فضروب النبات لمآربه واصناف الحيوانات مصروفة في مصالحه فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشدّ الالوان موافقة للأبصار وتقوية لها ولو كانت أشعّة أو أنوارا لأضرّت الناظر اليها، فان النظر الى الخُضرة والزُرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماءِ في سَعتها نعيما وراحة: لاسيما اذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها. والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر اليه به راحة وانشراحا لكن اذا دوام الناظر اليه نظره وكرّره ملّه وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح، بخلاف

النظرِ الى السّماء وزينتِها فان الناظر اليها من الملوك ، فمن دونهم اذا ضجروا من الأسباب المُضجرة لهم يلجئون الى ما يُشرحهم من النظر الى السماء وسَعةِ الفضاء ، وقد قالت الحكماء : يحذوك عندك من الرّاحة والنعيمِ فى دارك بمقدارِ ما عندك فيها من السماء ، وفيها انها حاملة لنجومها المرصّعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فتهتدى بها اهلُ الآفات ، وفيها طُرُق لا تزال توحد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرّدةً ولا مقبلةً صورةَ نورٍ ، وقيل انها انجم صِغار متكاثفة مجتمعة يهتدى بها على السيرِ من ضلّ ويحترُ فى أى جهة كانت فيقصدها وقيل انها المشار اليها فى قوله تعالى : والسماء ذات الحبك - وقيل الحُبُك الطُرق وقيل ذات الزينة فهى دلائلُ واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمّدية تدل على سعةِ علم بارئها وأمور ترتيبها كلّ تدلّ على ارادة مُنشيها فسبحان القادرِ العالِم المريد . وقيل فى النظر الى السماء عشر فوائد : تُنقص الهمّ وتُقلّل الوسواس ، وتُزيل وهمَ الخوف ، وتُذكّر بالله ، وتنشر فى القلب التعظيم لله ، وتزيل الفكر الرديئة ، وتنفع لمرض السوداء ، وتسلّى المشتاق ، وتؤنّس المحبين ، وهى قبلة دعاء الداعين .

❊ باب فى حكمة الشمس ❊

قال الله سبحانه - وجعل الشمس سِراجًا - اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لامور لايستكمل علمها الا الله وحده ، فالذى ظهر من حكمته فيها أن جعل حركتها لاقامةِ الليل والنهارِ فى جميع أقاليمِ الأرض ، ولولا ذلك لبطل أمر الدين أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون فى معايشهم ويتصرّفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنّون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالابصار ولم تظهر الالوان ، وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما فى ذلك من الحكمة ، ولولاه لم يكن للخلق

هُدُوء ولا قرار مع شدة حاجتهم الى الهدوء وراحة أبدانهم
وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتنفيذ
الغذاء، ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما
يعظم مكانته فى أبدانهم، فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما
هدءوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به، ثم كانت الارض
تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من
الحيوانات والنباتات، فهى بطلوعها فى وقت وغروبها فى وقت
فى النور بمنزلة سراج لاهل بيت يستضاء به وقتا ويغيب وقتا
ليهتدوا ويقروا وهى فى حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار حتى اذا
كمل طبخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم، وهو يحتاج اليها
فينتفع حتى اذا قضى حاجته سلمها لآخرين، فهى أبدا منصرفة
فى منافع أهل الأرض بتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين
متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه، والى هذه القضية الاشارة
بقوله - قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة -
الآية، ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات
والحيوان، ثم انظر الى مسيرها فى فلكها فى مدة سنة وهى تطلع
كل يوم وتغرب بسير آخر سخر لها بتقدير خالقها، فلولا طلوعها
وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت، ولو انطبق
الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق فانظر كيف
جعل الله الليل سكنا ولباسا والنهار معاشا، وانظر الى ايلاجه
الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان
عليهما على الترتيب المخصوص وانظر الى امالة سير الشمس
حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء فاذا انخفضت من
وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء، واذا استوت وسط السماء
اشتد القيظ، واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم
بذلك أمر النبات والحيوان باقامة هذه الازمنة الاربعة

من السَّنة، وأمّا ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر
والنبات فيتولد فيه موادّ الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب
والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة، وفي الربيع تتحرك
الطبائع في المواد المتولّدة في الشتاء فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر
وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل وفي الصيف يحمر الهواء فينضج الثمار
وتتحلل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فيتهيأ لما يصلح لذلك
من الأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد الليل
فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة، وكل ذلك يأتي على
تدريج وبقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة الى غير ذلك مما
يطول لو ذكر ❊ فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة
علمه، ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لإقامة دور السنة، وهذا
الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة: الشتاء والصيف والربيع والخريف
وتسير فيها على التمام، وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات
والثمار وتنتهي غاياتها، ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرها
تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم
العليم ❊ تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فإنها
لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها الا الى جهة
واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها
عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق فيعم شروقها
ما يقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة
حتى تنتهي الى الغرب على ما استتر عنها أول النهار فلا يبقى موضع
حتى يأخذ بقسطه منها ثم انظر الى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما
سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضر بكل
ما على وجه الارض من حيوان ونبات: أما الحيوان فكان لا يهدأ
ولا يقر ما دام يجد ضوء النهار، وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي
فيؤل أمرها الى تلفها، وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس

وتوهجها فيجف ويحترق، وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضا
لكان معوقا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف فى طلب المعاش
وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذى يحدث
على النبات اذا كان الموضع لاتقع الشمس عليه.

باب في حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى - تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل
فيها سراجا وقمرا منيرا - اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما
جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه
ظلمة داجية لاضياء فيها ألبتة فكان لايمكن أن يعمل عملا فيه وربما
احتاج الناس الى بعض أعمالهم فى الليل إما لضرورة اولضيق وقت
عليهم من النهار، وقد يقع ذلك لشدة حرارة اولغيره من الاسباب،
فكان ضوء القمر فى الليل من جملة ما يحتاج اليه فى المعونة على ذلك
فجعل طلوعه فى بعض الليالى، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها
لئلا ينشط الناس فى العمل نشاطهم فى النهار فيمتنعوا مما به يتمتعون
من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم، وجعل فى الكواكب جزأ من النور
يستعان به اذا لم يكن ضوء القمر وجعل فى الكواكب زينة السماء
وأنسا وانشراحا لاهل الارض شيئا ما ألطف هذا التدبير، جعل
للظلمة دولة ومدة للحاجة اليها، وجعل خلالها فانظر من النور ليكمل
به ما احتيج اليه، ثم فى القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح
ونعمة من الله، ثم فى النجوم مآرب اخرى فان فيها دلائل وعلامات
على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء
بها فى السفر فى البر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد
وبها يهتدي السيارون فى ظلمة الليل وقطع القفار الموحشة واللجج
الهائلة كما قال تعالى - وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها
فى ظلمات البر والبحر مع ما فى ترددها فى السماء مقبلة ومدبرة

ومُشرِقةً ومغربةً من البهجة والنضارة وفي تصريف القمر خاصة
في استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستتارته وكسوفه كل
ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرّف لها هذا التصرّف لاصلاح العالم
ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دورانا
سريعا وسيرها معلوم مشاهد فإنا نشاهدها طالعة وغاربة، لولا
لاسرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين
ساعة، فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة
مسيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتها كالذي
يحدث أحيانا من البروق اذا توالت في الجو، فانظر لطف الباري سبحانه
في تقدير سيرها في البُعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث
لا يُحتمل فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة، وانظر
في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل الثريا
والجوزاء والشعرا، فانها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن
لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان في
طلوع بعضها في وقت دون الأخر ما يدل على ما ينتفع به الناس
عند طلوعه مما يُصلحهم، ولذلك جُعلت بنات نعش ظاهرة
لا تغيب لضرب من المصلحة فانها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها
الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فانها لا تغيب ولا تتوارى، ثم
انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات
المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج كما يُستدل على
أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلهما ولو
كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تُعرف ولا رسم يُقاس
عليه لانه انما يُعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية
كما يُعرف سير السائر على الارض بالمنازل التي يجتاز عليها، فقد صار
هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم
بهذا دورانا دائما في الفصول الاربعة من السنة لصلاح ما فيه

من حيوانٍ ونبات وغيرِ ذلك بتقدير العزيز العليم، ومن عظيم الحكمة خلق الافلاك التى بها ثبات هذا العالمِ على نهايةٍ من الاتقانِ لطول البقاء وعدمِ التغيرِ فقد كفى الناس التغيّر فى هذا الامر الجليل الذى ليس قدرة ولاحيلةٌ فى اصلاحه لونزل به تغير يوجب ذلك التغير أمرًا فى الارض اذ قوام الارض مرتبط بالسماء، فالامر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة البارى سبحانه لايختلّ ولايعتلّ ولا يتخلّف منه شيئٌ عن ميقاته لصلاح العالمِ، فسبحان العليم القدير.

باب فى حكمة خلق الارض

قال الله تعالى - والارض فرشناها فنعم الماهدون - ثم انظر كيف جعل الله الارض مهادا ليستقر عليها الحيوان فانه لابدّ له من مستقر ولاغنى له عن قوتٍ فجميع الارض محلّ للنبات لقوته، ومسكن يكنّه من الحرّ والبرد، ومدفن يدفن فيه ما تؤذى رائحته، والجيف والاقذار من اجسامِ بنى ادم وغيرها كما قال سبحانه الم نجعل الارض كفاتا أحياءً وامواتا - قيل فى تفسير هذه الاية هذا القول وغيره، ثمّ ذلّل طرقها لتتنقل فيها الخلق لطلب مآربهم فهى موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات، وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبّه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله - اخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم - فأمكن الخلائق بهذا السفر فيها فى مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والانتقال لاعمالهم، فانها لوكانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئا من النبات وجميع الصناعات وكانوا لايتهنون بالعيش والارض ترتج بهم من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس فى الزلازل ترهيبا للخلق وتخويفا لهم لعلهم يتقون الله وينزعون عن الظلم والعصيان فهذا أيضا من الحكمة البالغة، ثم ان الارض طبعها الله باردة يابسة بقدرٍ مخصوص، أرأيت لوأفرط اليبس

عليها حتى تكون بجملتها حجرا صلدا لما كانت تُنبِت هذا النبات الذى
به حياة الحيوانات ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعل لينها
لتتهيأ لهذه الأعمال، ومن الحكمة فى خلقها ووضعها أن جعل مهب
الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويرويها
ثم يصير الى البحر فى آخر الأمر فأشبه ذلك ما اذا رفع أحد جانبى السطح
وخفض الآخر لينحدر الماء عنه، ولولا ذلك لبقى الماء مستبحرا على وجه
الارض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب
ذلك. انظر الى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع
الجواهر المختلفة فى منافعها وألوانها مثل الذهب والفضة والياقوت
والزمرد والبسنفش (1) وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة
المختلفة فى ألوانها وأنواع أخر مما يصلح للأعمال والجمال كالحديد
والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا
والرخام والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع
به الناس ويتصرف فيما يصلحهم. فهذه نعم يسرها سبحانه لهم
لعمارة هذه الدار، ثم انظر الى ارادة إجادته من عمارتها وانتفاع
العباد بها بجعلها هشة سهلة، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال
فلو يبست كذلك لتعذرت، فان الحرث لا يستقيم الا مع رخو الارض
لزراعة الأقوات والثمر، والا فلا يتعدى اذا صلبت الماء الى الحب
مع أن الحب لا يمكن دفنه الا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ
الورق وهى ضعيفة فى ابتدائها فى الأرض التربة، ويمكن اذ ذلك
عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله
سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى حتى يقف الشجر
والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق
من الفروع ومن رحمته فى لينها أن يسر للناس حفر الآبار فى
المواضع المحتاجة الى ذلك اذ لو حفرت فى الجبال لصعب الامر

(1) هكذا الاصل ولم اجده فى اللسان.

وشقّ، ومن الحكمة فى لينها تيسير السير للسعادة فيها اذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق، وقد نبّه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله - هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها - وقال تعالى - وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون - ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها فى البناء وعمل اللبن وأوانى الفخار وغير ذلك والمواضع التى ينبت فيها الملح والشبّ والبورق والكبريت أكثرها تربة رخوة، وأيضا أجناس من النبات لا يوجد الا فى التراب والرمل دون الارض المحيلة ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتا يؤوى اليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا فقد امتنّ سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله - واسلنا له عين القطر - أى سهّلت له الانتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه، وقال امتنانا على عباده - وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس - والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه - وأنزل لكم من الأنعام - اى خلق. وألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون اليه فى معاشهم وفى اتخاذ أوانيهم، وفى ضبطها مما يحتاجون الى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أوانى لحفظ ما يحصل فيها من الامور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج اليها اذ لا غنى لهم عنها، وكذلك يستخرج من المعادن الاكحال مثل (الدهبخ[1] والمرفعنا) والسادن والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم. ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال - قال الله تعالى - والجبال أرساها - وقال تعالى - وألقى فى الارض رواسي أن تميد بكم - وقال سبحانه - وانزلنا من السماء ماء فأسكناه فى الارض - فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها الا الله، فمن ذلك أن الله تعالى

(١) هكذا الاصل ولم اجده فى اللسان.

أنزل من السّماء المياه ليحيى بها العباد والبلاد ، فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحرّ الشمس مع رخو الارض فكانوا لايجدون المياه الا بعد حفر وتعب ومشقة ، فجعل سبحانه الجبال لتستقرّ فى بطونها المياه ويخرج أوّلاً فاوّلاً فتكون منها عيون وأنهار وبحار يروى بها العباد فى أيام القيظ الى أوان نزول غيث السّماء ، ومن الجبال ماليس فى باطنها محلّ للمياه ، فجعل الثلج محفوظا على ظاهرها الى أن يحلّه حرّ الشمس فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها الى اوان نزول الغيث أيضا ، ومنها مايكون فيه برك يستقرّ فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به ، ومن منافع الجبال ماينبت فيها من أنواع الاشجار والعقاقير التى لاتوجد الا فيها ومايثبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن ، وفيها الشعارى التى لايوجد ما يعظم من الأخشاب الا فيها ؛ وكذلك العقاقير أكثرها لايوجد الا بها ، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ومزارع لبنى ادم ومساكن للوحش ومواضع الأجناح (١) النحل ومن منافع الجبال مايتخذه العباد من المساكن تقيهم الحرّ والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى ، وقد ذكر الله ذلك فقال - وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا امنين - ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات فى نواحى الأرض ويستدل بها المسافرون فى البحار على المدن والسواحل ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لاتطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنعها من تخافه فتطمئن لذلك ، وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسّرا فى الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة فى المياه ، وما ذلك الا لما سبق فى علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما اشار الى ذلك

(١) الاجناح جمع جانح كشاهد واشهاد الداب به موائلها -

بقوله - وإن من شيءٍ الّا عندنا خزائنه وما نُنَزِّله الّا بقدرٍ معلـــومٍ -
فسبحان العليم الحكيم.

* باب فى حكمة البحر *

قال الله تبارك وتعالى - وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا - الأية . اعلمْ رحمك الله . أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها ، فجعلها مكتنفَةً لأقطار الأرض التى هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالاضافة الى الماء كربوةٍ صغيرةٍ فى بحرٍ عظيمٍ . فاعلمْ أن ما يُخلق فى الأرض من الحيوان بالأضافة الى ما خُلقَ فى البحر كاضافة الارض الى البحر وقد شاهدتَ عجائبَ فيها ما هو مكشوفٍ منها فتأمل عجائب البحر فإن فيهِ من الحيوان والجواهر والطيب أضعافَ ما تشاهده على وجه الأرض كما ان سعَته أضعاف سعة الارض ، ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما اذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظنّ من يراها أنها خُشاف⁽¹⁾ وجبال أوجزائر ، وما من صنفٍ من أصناف حيوان البرّ من انسان وطائر وفرسٍ وبقرٍ وغير ذلك الّا وفى البحر أمثالها وأضعافها ، وفيه أجناس من الحيوانات لم تُعهَد أمثالها فى البرّ ، وكل منها قد دبّره البارى سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويُصلحه ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لأحتاج الى وضع مجلدات ، ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مُدَوّرًا فى صدَفٍ تحت الماء وأثبت المرجان فى جنح صخورٍ فى البحر ، فقال سبحانه - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان - وذلك فى معرض الامتنان وقيل المرجان المذكور فى القران هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قالـــ - فبأيّ الاء ربكما تكذّبان - والآؤه تفضّله ونعمه ، ثم انظر مـا

(١) الخشاف جمع حشفة وهى الجزيرة فى البحر لا يعلوها الماء او الصخرة الرخوة فى سهل من الارض اهـ لسان .

يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع ، ثم انظر الى عجائب السفن وكيف
مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم
من الأعراض وجعلها من اياته ونعمته . فقال - والفلك التى تجرى
فى البحر بما ينفع الناس - فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل اثقالهم
وينتقلون بها من اقاليم الى أقاليم لا يمكن وصولهم اليها الا بالسفن
ولو راموا التوصل بغيرها لأدى الى أعظم المشقات وعجزوا عن
نقل ما يثقل من المنقولات الى ما بعد من البلاد والجهات ، فلما
اراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم
خلق الأخشاب متخلخلة الاجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها
من الفضاء عن نفسها ما يحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها
سفنا . ثم ارسل الرياح بمقادير فى أوقات تسوق السفن وتسيرها
من موضع الى موضع اخر . ثم ألهم اربابها معرفة أوقات هبوبها
وفترتها حتى يسيروا بالرياح التى تحملها شراعها وانظر الى ما
يسره سبحانه فى خلقة الماء ، اذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل
الاجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع
حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والانفصال حتى
يمكن سير السفن فيه ، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله فى هذا ! كله
وفى بعضه متسع للفكر ، وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل
متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها
معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته ، قائلة : أما ترى
تصويرى وتركيبى وصفاتى زمنا واختلاف حالى . وكثرة
فوائدى : أيظن ذو لب سليم وعقل رصين انى تلونت بنفسى
أو أبدعنى أحد من جنسى بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار .

❖ باب فى حكمة خلق الماء ❖

قال الله تبارك وتعالى - وجعلنا من الماء كل شيء حي

أفلا يؤمنون - وقال سبحانه - فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان
لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون - انظر وفقك
الله الى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذى
به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو اضطر
الانسان الى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما
يمكنه من خزائن الدنيا ، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة
العظيمة ، وانظر مع شدة الحاجة اليها كيف وسع سبحانه على العباد
فيها ، ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن
الدنيا ؛ ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويتخلل
أجزائها فتتغذى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة
الشمس الى أعالى الشجر والنبات وهو من طبعه الهبوط ولما كانت
الضرورة تدعو الى شربه لإماعة الأغذية فى أجواف الحيوان ليتصرف
الغذاء الى موضعه جعله لشاربه فى شربه لذة عند حاجته اليه
وقبوله له ويجد شاربه فيه نعيما وراحة ، وجعل مزيلا للأدران
عن الأبدان والاوساخ عن الثياب وغيرها ، وبالماء يبل التراب
فيصلح للبناء والأعمال ، وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله
يابسا ، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها ، وبه تطفأ عاذية (1)
النار اذا وقعت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها على ما
يكرهون وبه تزول الغصة اذا أشرف صاحبها على الموت ، وبه
يغتسل التعب الكال فيجد الراحة لوقته ، وبه تستقيم المطبوخات
وجميع الأشياء التى لا تستعمل ولا تصلح الا رطبة الى غير ذلك
من مآرب العباد التى لا غنى لهم عنها ، فانظر فى عموم هذه النعمة
وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها مع شدة الحاجة اليها .
فلو ضاقت لكدرت الحياة الدنيا ، فعلم بهذا أن الله تبارك
وتعالى أراد بانزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان

(1) العاذبة الذى ليس بينه وبين السماء ستر.

ونباتٍ ومعدنٍ الى غير ذلك من المنافع التى يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها . فسبحان المتفضل العظيم .

باب فى حكمة خلق الهواء

قال الله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين - اعلم رحمك الله أن الهواء فى حلقه (١) تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة فى أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التى فيها الى قلبها فكان هلاكها بسبب ذلك، ثم انظر الى الحكمة فى سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب فى موضع يحتاج الى المطر فيها للزراعة، فلولا لطف البارى بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة فى أماكنها وامتنع انتفاع الارض بها، ثم انظر كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم الى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء الا بمواضعها التى خلقت فيها خاصة، ولعسر نقلها بالدواب الى غيرها من الأقاليم، وللعباد ضرورات تدعو الى ما ينقل اليهم مما ليس يخلق عندهم، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يحملها ويعلم فوائدها. ثم انظر الى ما فى الهواء من اللطافة والحركة التى تتخلل أجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض، فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل، ثم انظر الى ما يحصل منه من النفع فى نقل السوافى والرمال الى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل اليها من التراب بسبب حركة الهواء ونشر وجوه جبال بالسافى (٢)

(١) الحلق الأهوية بين السماء والأرض واحدها حالق، والهواء الفراغ قال تعالى : وأفئدتهم هواء . (٢) السافى التراب الذى تسفيه الريح .

فيمكن الزراعة فيه وما فصل الى السواحل مما ينتفع النّاس بسببه، وكل
ذلك بحركة البحر بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد
فى أمورهم ثم انظر كيف يتفرّق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على
الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل
انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع
أنهارا وبحارا على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم
على أحسن وجه؛ فانظر الى أثر رحمة الله، فسبحان اللطيف
بخلقه المدبر لملكه، ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول
هذه النعمة وجليل قدرها كما نبّه العقول عليها بقوله تعالى:
هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون
ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات.
ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون -؛ ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة
أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه
صلاح هذا العالم فلو دام واحد منهما عليه لكان فسادا، الا ترى
الى الأمطار اذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت
المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثير
من الحرف والصناعات، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات
وعفن الماء الذى فى العيون والاودية، فأضر ذلك بالعباد وغلب
اليبس على الهواء فأحدث ضررا آخر من الأمراض، وغلت بسببه
الاسعار من الأقوات، وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجدونه
من الرطوبة التى يرعاها على الأزهار، واذا تعاقبا على العالم اعتدل
الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء
واستقامت، وهذا هو الغالب من مشيئة الله. فان قيل قد يقع
من أحدهما ضرر فى بعض الأوقات، قلنا قد يكون ذلك لتنبيه
الانسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته انه
هو الغالب فيحصل لهم بتلك انزجار عن الظلم والعصيان. الا

ترى من سقم جسمه احتاج الى ما يلائمه من الأودية البشعة الكريهة
ليصلح جسمه ويصح ما فسد منه قال الله - ولكن ينزل بقدر ما
يشاء إنه بعباده خبير بصير.

باب في حكمة خلق النار

قال الله تعالى - أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم
شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين
فسبح باسم ربك العظيم - اعلم وفقنا الله وإياك : أن الله خلق
النار، وهي من أعظم النعم على عباده ولما علم الله سبحانه وتعالى:
أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة
حتى اذا احتيج اليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج اليها
فيه فهي مخزونة في الأجسام، ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ما
تصلحه من الطبائخ والاشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج
ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل
وشرب، فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الامر المهم، ثم
انظر فيما يحتاج الناس اليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد
والرصاص والقزدير وغير ذلك، فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع
من هذه الاشياء، فبها يذاب النحاس فتعمل منه الاواني وغيرها
وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر، فقال
تعالى - اعملوا آل داود شكرا - وبه يلين الحديد فيعملون به
أنواعا من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف الى
غير ذلك مما يطول تعداده، وقد نبه الله تعالى على مثل هذا
فقال: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس - وقال
تعالى - لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون - ومنه يعمل
الآت للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار، وآلات يطرق
بها، وآلات لقطع الجبال الصمة والات لنجارة الاخشاب مما يكثر

تعدادها. فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الاتربة ثم انظر الى ما جعل الله تعالى فى النار من الفرح والتروح عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها فى جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد، ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها برا وبحرا فيجدون بوجودها أنسا حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم، ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها فى الحروب ومقاومة حصون لا تملك الا بها. فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التى جعل سبحانه حكمها بأيديهم ان شاءوا اخزنوها. وان شاءوا أبرزوها.

باب فى حكمة خلق الإنسان

قال تعالى - ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين - الى آخر ما وصفه سبحانه. اعلم وفقك الله تعالى: أن الله عز وجل لما سبق فى علمه خلق الخلق وبثهم فى هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكر والانثى وألقى فى قلوبهم المحبة والدواعى حتى عجزوا عن الصبر وعدموا الحيلة فى اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة فى خلقهم الى الاجتماع وجعل الفكرة تحرك عضوا مخصوصا به الى ايداع الماء فى القرار المكين الذى يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن، وخرجت ماء دافقا مندفعا من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة، فانتقلت بسبب الإفلاج من باطن الى باطن، فكانت مع انتقالها باقية على أصلها، لأنها ماء مهين أدنى شىء يباشرها يفسدها ويغير أصلها، لانها ماء مهين أدنى شىء يباشرها يفسدها ويغير

مزاجها ، فهي ماء يختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال ، فخلق سبحانه منه الذكر والانثى بعد نقلها من النطفة الى العلقة الى المضغة الى العظام ، ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق ، وخلق الأعضاء وركبها فدوّر سبحانه الرأس وشق فيها السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر ، ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره ، وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها ، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الأبصار ، وانظر الى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل اليها مما يؤذيها من غبار وغيره ، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقت ، ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصا يضر بها وخلق في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين ، وجعل الحاجبين جمالا للوجه وسترا للعينين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة ، وجعل شعر الرأس واللحية قابلا للزيادة والنقص ، فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه ، ثم انظر الى الفم واللسان وما في ذلك من الحكم ، فجعل الشفتين سترا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلق ، وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الانسان وتقليب الطعام والقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ، ويسهل ابتلاعه ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا ، فان أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي ، وجمع فيها بين النفع والجمال

وجعل ماكان منها معكوساً زائد الشعب حتى تطول مُدّتُه مع
الصف الذى تحته ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة
اليها على الدوام ، وفى الاضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة الى
درس الغذاء ، فان المضغ هو الهضم الأول ، وجُعلت الثنايا والأنياب
لتقطيع الطعام وجمالا للفم فأحكم أصولها ، وحدد رؤوسها ،
وبيّض لونها مع حمرة ماحولها ، متساوية الرؤوس متناسبة التركيب
كأنها الدرّ المنظوم . ثم انظر كيف خلق فى الفم نداوة محبوسة
لاتظهر الا فى وقت الحاجة اليها ، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك
لكان تشويهاً للانسان ، فجُعلت ليبل بها ما يُمضغ من الطعام حتى
يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم ، فاذا فقد الأكل عدمت
تلك النداوة الزائدة التى خُلقت للترطيب ، وبقى منها ما يبل
اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف . فان جفافه مهلك
للانسان ، ثم انظر الى رحمة الله ولطفه : إذ جعل للآكل لذة الأكل
فجعل الذوق فى اللسان وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما
يوافقه ويلائمه من الملذوذ فيجد فى ذلك راحة فى الطعام والشراب
اذا دعت حاجة الى تناوله وليجتنب الشيء الذى لايوافقه ويعرف
بذلك حدّ ما تصل الاشياء اليه فى الحرارة والبرودة ، ثم أن الله
تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مُرّة يحفظ بها السمع من ضرر
الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع ، وحفظ الأذن
بصدفة لتجمع الصوت فتردّه الى صماخها ، وجعل فيها زيادة حس
لتحس بما يصل اليها مما يؤذيها من هوام وغيرها ، وجعل فيها تعويجات
ليتطرد فيها الصوت ، ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه
فيتنبه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم ، ثم انظر الى إدراكه
المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لايعلم حقيقته
الا البارى سبحانه إلى غير ذلك ، ثم انظر كيف رفع الأنف فى وسط
الوجه ، فأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وجعل فيها حاسة الشم

ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، وليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة ، وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه ، ثم خلق الحنجرة وهيئها لخروج الاصوات ، ودوّر اللسان فى الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت فى مجارى مختلفة تختلف بها الحروف ليسع طرق النطق ، وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلف بسبب ذلك الأصوات ، فلم يتشابه صوتان : كما خلق بين كل صورتين اختلافا فلم تشتبه صورتان ؛ بل يظهر بين كل صورتين فرقان ، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت ، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان ، وكذلك لسر التعارف ، فان الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما ، فخلق منهما خلقا جعله مخالفا لخلق أبيه وأمه ، ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف ثم انظر لخلق اليدين تهديين الى جلب المقاصد ودفع المضار وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس ، وقسم الاصابع بأنامل ، وجعل الأربعة فى جانب والابهام فى جانب فيدور الابهام على الجميع ، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجها آخر عن وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة ، وتفاوت الاربعة فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضع صلح بها القبض والاعطاء ، فان بسطها كانت طبقا يضع عليه ما يريد ، وان جمعها كانت آلة يضرب بها ، وان ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وان بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة ، ثم خلق الاظفار على رؤوسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل لولاها ، وليحك بها جسمه عند الحاجة الى ذلك ، فانظر أقل الاشياء فى جسمه لو عدمها وظهرت به

حكمة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه ، وجلب
ما ينتفع به فى ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه فى حك جسده،
لانه مخلوق لذلك ولغيره فهو لا صلب كصلابة العظام ، ولا
رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ، ثم
جعله يهتدى به الى الحك فى حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع
الى جهتها من جسده ، ولو احتاج الى غيره واستعان به فى حكها
لم يعثر الغير على مواضع الحاجة الا بعد طول وتعب ، ثم انظر
كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك
من السعى ، وزين القدمين بالاصابع ، وجعلها زينة وقوة على السعى
وزين الاصابع أيضا بالأظفار وقواها بها ، ثم انظر كيف خلق
هذا كله من نطفة مهينة ، ثم خلق منها عظام جسده فجعلها
أجساما قوية صلبة لتكون قواما للبدن وعمادا له ، وقدرها تبارك
وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة ، فمنها صغير وطويل
ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ثم أودع فى أنابيب
هذه العظام المخ الرقيق مصانا لمصلحتها وتقويتها ، ولما كان الانسان
محتاجا الى جملة جسمه ، وبعض أعضائه لتردده فى حاجاته لم
يجعل الله سبحانه عظامه عظما واحدا بل عظاما كثيرة ، وبينها
مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر
وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض
بأوتاد أثبتها بأحد طرفى العظم وألصق الطرف الآخر كالرباط
ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منها ، ومن الآخر
نقرا غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق ، فصار
الانسان إذا أراد أن يحرك شيئا من جسده دون غيره لم يمتنع
عليه ، فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك ، ثم انظر
كيف جعل خلق الرأس مركبا من خمسة وخمسين عظما مختلفة
الأشكال والصور ، وألف بعضها الى بعض بحيث استوت كرة

الرأس كما ترى، فمنها ستة تختص بالقحف، وأربعة وعشرون للحى الأعلى، واثنان للحى الأسفل، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن، وبعضها حادّ يصلح للقطع، ثم جعل الرقبة مركز الرأس، فركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها، ثم ركّب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فجملة عدد العظام فى بدن الانسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق البارى سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالا، واحتاج الانسان الى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الانسان الى جبره، فعل سبحانه وتعالى فى هذا الخلق عبرة لأولى الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها، ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهى العضلات؛ فخلق فى بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف موضعها وحاجتها فأربعة وعشرين منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه، وأما أمر الأعصاب والعروق والاوردة والشرايين ومنابتها وسعتها، فأعجب من هذا وشرحه يطول، ثم عجائب

ما فيه من المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم، ثم
انظر الى ماشرف به وخص فى خلقه بأنه خلق ينتصب قائما ويستوى
جالسا ويستقبل الامور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل
ولم يخلق مكبوبا على وجهه كعدة من الحيوانات؛ إذ لو كان كذلك
لما استطاع هذه الأعمال. ثم انظر من حيث الجملة الى ظاهر هذا
الانسان وباطنه فتجده مصنوعا صنعة بحكمة تقضى منها العجب
وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء متوال
عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها، بل يقف
عندها ولا يزيد عليها، فانها لو تزايدت بتوالى الغذاء عليها العظمت
أبدان بنى آدم، وثقلت عن الحركة، وعطلت عن الصناعات
اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها، ومن اللباس كذلك
ومن المساكن مثل ذلك، وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير
وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقا بخلقه، فاذا
وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء، فما ظنك بصنعته
فى ملكوت السموات والارض وشمسها وقمرها وكواكبها وما حكمته
فى أقدارها وأشكالها وأعدادها وأوضعها واجتماع بعضها وافتراق
بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظن
أن ذرة فى السموات والارض وسائر عالم الله ينفك عن حكم، بل
ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها الا الله سبحانه
وتعالى - الم تسمع قوله سبحانه وتعالى - "أأنتم أشد خلقا
أم السماء بناها - الى آخر ما نبه به، وتأمل لو اجتمع الانس والجن
على أن يخلقوا للنطفة سمعا وبصرا وحياة لم يقدروا على ذلك
فانظر كيف خلقها سبحانه فى الأرحام وشكلها فأحسن تشكيلها
وقدرها فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها، وقسم أجزاءها
المتشابهة الى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام فى أرجائها وحسن
أشكال أعضائها، ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها

وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سببا لبقائها مدة حياتها، ثم
كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال
والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار
مخصوص لعمل مخصوص، فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبا معينا
شديد الحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه، وجعل طحن الأضراس
أولا معينا للمعدة على جودة طحنه وهضمه، وجعل الكبد لإحالة
الغذاء الى الدم فيجذب منه الى كل عضو من الغذاء مما يناسبه،
فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء
الأعصاب، وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطحال والمرارة
والكلية لخدمة الكبد، فالطحال لجذب السوداء، والمرارة لجذب الصفراء
والكلية المائية عنه، والمثانة لقبول الماء عن الكلية، ثم يخرجه
في مجرى الاحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه الى سائر أطراف
البدن، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهي
بمنزلة الظروف والأوعية، ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به
ألطافا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها الا خالقها ويعجز
الواصف عن وصف ما وصل اليه نظره من ذلك فمن ذلك جعله
فيها لا يحتاج الى استدعاء، ولا يحتاج المولود الى ما يبين ذلك لا بوعظ
ولا تنبيه بل ذلك في الطباع الى وقت حاجة المولود الى الاغاثة
في غذائه، ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة
التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم
الغذاء، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة اليها لا قبل ذلك ولا بعده
ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج الى حين كماله
وبلوغه؛ وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلا غير ذي عقل وفهم
فانه لو كان ولد عاقلا فهيما لأنكر الوجود عند خروجه اليه حتى
يبقى حيران تائه العقل اذ رأى ما لا يعرف، وورد عليه ما لم
يره ولم يعهد مثله. ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا

وموضوعا معصّبًا بالخرق ومسجّى فى المهد مع كونه لا يستغني عن هذا
كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد، ثم كان لا يوجد له من الرقة
له والحلاوة والمحبّة فى القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه
بعقله واختياره لنفسه، فتبيّن أنّ ازدياد العقل والفهم فيه على
التدريج أصلح به، أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على
غاية الحكمة وطريق الصواب وأعلمه تقلّب الخطأ فى دقيقه
وجليله، ثم انظر فيما اذا اشتدّ خلق فيه طريقا وسببا للتناسل
وخلق فى وجهه شعرا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمّله
ويستر به غضون وجهه عند شيخوخته، وان كانت أنثى أبقى
وجهها نقيّا من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرّك الرجال لما
فى ذلك من بقاء النسل. فكّر الآن فيما ذكرناه ودبّره سبحانه فى هذه
الأحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملا أرأيت
لو لم يجر له الدم غذاءً وهو فى الرحم ألم يكن يذوى ويهلك
ويجف كما يجف النبات اذا انقطع عنه الماء ولو لم يزعجه المخاض عند
استكماله ألم يكن يهلك ببقائه فى الرحم هو وأمه ولو لم يوافه
اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعا وعطشا أو يغذى بما
لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الأسنان فى وقتها
ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع
ولا يشتدّ جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي فى هيئة النساء
والصبيان فلا ترى له هيبة ولا جلالة ولا وقارا، ومن ذا الذى
يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب فى وقتها الا الذى أنشأه
بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وتفضّل عليه ومنّ عليه بكل هذه
النعم. فكّر فى شهوة الجماع الداعية لاحيائه، والآلة الموصلة
الى الرحم النطفة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما فى
ذلك من التدبير المحكم، ثم فكّر فى جملة أعضاء البدن وتهيئة
كل عضو منها للإرب الذى أريد منها فالعينان للاهتداء بالنظر

واليدان للعلاج والحذف والدفع والرجلان للسعي، والمعدة لهضم الطعام
والكبد للتخليص والتمييز، والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ
لدفع الفضلات، واذا تأملت كذلك مع سائرما فى الانسان وجدته
قد وضع على غاية الحكمة والصواب فكر فى وصول الغذاء الى المعدة
حتى ينضجه ويبعث صفوه الى الكبد فى عروق دقاق قد جعلت
كالمصفاة للغذاء، ولكيلا يصل الى الكبد منه شيء غليظ خشن
فينكؤها فانها خلقت دقيقة لاتحمل الغث فتقلبه باذن الله دما
وتنفذ الى سائر البدن فى مجار مهيأة لذلك فيصل الى كل شيء من
ذلك مايناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك الله رب العالمين
ثم ينفذ مايكون من خبث وفضول الى معابض وأعضاء أعدت لذلك
كما ذكرنا قبل هذا. فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات
لكيلا تنتشر فى البدن فتسقمه، ثم انظر هل تجد فى خلق البدن
شيئا لامعنى له. هل خلق البصر الاليدرك الأشياء والألوان فلو
كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، هل كان فى الألوان منفعة؟
ولولم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ماكان ينتفع بالبصر؟
وهل خلق السمع الاليدرك الأصوات؟ فلوكانت الاصوات ولم يكن
سمع يدركها لم يكن فى الاصوات منفعة وكذلك سائر الحواس. فكر فى اشياء
جعلت بين الحواس والمحسوسات لايتم الحس الابها منها الضياء والهواء
فلولم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر ولولم يكن
هواء يؤدى الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت. فكر
فيمن عدم البصر والسمع ومايناله من الخلل فانه لاينظر أن يضع
قدمه ولايدرى مابين يديه ولايفرق بين الألوان ولايدرى
بهجوم آفة أوعدو ولاسبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات. وأما
من عدم السمع فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة
الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة على من
يخاطبه حتى يتبرم منه ولايسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم

حتى يصير كالغائب وهو شاهد، وكالميت وهو حيّ، وأما من عدم العقل فهو أشرّ من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح، وهذه الأوصاف التي بها صلاح الانسان محصّلة ومبلّغة لجميع مآربه ومتمّمة لجميع مقاصده، واذا فقد شيئا اختلّ أمره وعظم مصابه، ومن بُلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظًا في الآخرة فانظر الى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع. ثم فكّر في الأعضاء التي خُلقت أفرادا وأزواجا، وما في ذلك من الحكمة والصواب. فالرأس مما خُلق فردا، وإن كثيرا من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شيء كان ثقلا لا يُحتاج اليه، فان كان قسمين فان تكلّم واحدهما بقي الآخر معطلا لا حاجة اليه. وان تكلّم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يُحتاج اليها، وان تكلّم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك. وأما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحا، واليدان خُلقتا أزواجا ولم يكن للانسان خير في أن يكون يلمّ بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور، فانك ترى من شلّت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص وإن يكلّف بشيء لم يُحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة. فكّر في تهيئة آلات الصوت فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والفم، ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه، ثم انظر الى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها الى الرئة فتروّح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام وإعانته على تسويغ الطعام والشراب وما في الأسنان من المعونة أيضا. ثم هي كالمسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم، وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يُدخله الى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الانسان ثم هما على الفم كالباب.

فقد تبيّن أنّ كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف الى وجوه من
المآرب وضروب من المصالح إن زاد أفسد وان نقص أفسد، فذلك
تقدير العزيز العليم. فكّر فى الدماغ اذا كشف عنه فانك تجده
قد لفّ بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة
والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حرّ وبرد وغير ذلك
فحصّن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهمّ وأنه
مستحق لذلك لكونه ينبوع الحسّ. ثم انظر كيف غيّب الفؤاد
فى جوف الصدر وكساه المدرعة التى هي غشاؤه وأتقنها وحصّنه
بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وان ذلك اللائق
به، ثم انظر كيف جعل فى الحلق منفذين: أحدهما للصوت وهو
الحلقوم الواصل الى الرئة والآخر للغذاء وهو المرىء الواصل الى
المعدة، وجعل على الحلقوم مطبقا يمنع الطعام أن يصل اليه، ثم
جعل الرئة مروّحة للفوائد لا تفتر ولا تخلّ تأخذ وتردّ بغير كلفة
لئلا تنحصر الحرارة فى القلب فتؤدّي الى التلف، ثم ملأ الجوّ
هواء لهذه المصلحة ولغيرها، ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط
إسترّاحا يضبطها لكي لا يجري جريانا دائما فيفسد على الانسان
عيشته، ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيرا كثيفا ليقي الإنسان
من ألم الجلوس على الأرض كما يألم من الجلوس من نحل جسمه
وقلّ لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل. انظر لو كان ذكر
الرجل مسترخيا أبدا كيف يصل الماء الى موضع الخلق ولو كان منعظا
أبدا كيف يكون حاله فى تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستورا
كأنه لم تخلق له شهوة. ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير فى البناء
أن يكون الخلاء فى أستر موضع فى الدار، فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ
لقضاء حاجة الانسان فى أستر موضع من جسده مغيّب فيه تلتقى
عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره، وذلك
مخصوص بالانسان لشرفه. ثم انظر فى خلق الشعر والاظفار لما

كانا يطولان ، وفي تقصيرهما مصلحة جعلا عديمي الحس حتى
لا ينال الإنسان ألم عند التزيين بقصهما ، ولولا هذه الحكمة لكان
بين أمرين ، إما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه ، أو يزيل ذلك
فيتألم بإزالته ، ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر
أو في الفم لنغصت الأكل والشرب ، أو في راحة الكف لنفدت لذة
اللمس وبعض الأعمال ، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول
هذه المواضع لنباتها فيها ، فسبحان المدبر المنعم بهذا النعم . فانظر
كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ، ثم
فيما جبل عليه الانسان مع الاحتياج الى المطعم والنوم والجماع وما
في ذلك من التدبير المحكم ، فقد جعل في طبعه محركا يقتضيه ويستحثه .
فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته ، وكذلك
الشراب الذي به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى
والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه فلو كان
الانسان انما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة اليه ولم يجد
من طباعه ما يلجئه اليه لاشتغل بأسباب ضرورته فتنحل قواه
ويهلك كما انه قد يحتاج الى دواء يكرهه ، وفيه صلاحه وليس في
جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أو يموت ، فكذلك
لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض
مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب . وكذلك لو كان إقدامه
على الجماع انما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل لما يعارضه
من الأسباب المشغلة . فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره الى
حصول هذه الفوائد . انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب
المحكم العجيب . فصار البدن بما فيه ، بمنزلة دار لملك فيها حشم
وقوم موكلون بالدار فواحد لامضاء حوائج الحشم وايراد ما
لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى أن يعالج ويهيأ وآخر لاصلاح
ذلك وتهيئته واصلاحه أخص مما قبل وآخر لكسح ما في الدار

من الأقذار واخراجه فالملك فى هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه.
والدار هى البدن . والحشم هى الاعضاء . والقوم فى هذه القوى
الاربع التى هى النفس وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم
والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك أرأيت لو نقص من الانسان
من هذه الصفات الحفظ وحده كيف يكون حاله ، وكان لا يحفظ ماله
وما عليه وما أصدر وما أورد وما أعطى وما أخذ وما رأى وما سمع
وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن اليه ولا من أساء له ولا
من نفعه ممن ضره . وكان لا يهتدى لطريق ولو سلكه ، ولا لعلم
ولو درسه ولا ينتفع بتجربة . ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى .
فانظر الى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها . فكيف جميعها
وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان . فلولا النسيان ما سلا
الانسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد
ولا يستمتع بشىء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات
والفجائع المغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة
ولا ذهولا من حاسد أو قاصد مضرة . فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه
الحفظ والنسيان وهما متضادان . وجعل للانسان فى كل منهما ضروبا
من المصالح . ثم انظر الى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء
فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم
يثمر الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى ان كثيرا
من الامور الواجبة : انما تفعل لسبب الحياء من الناس فترد
الامانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش
الى غير ذلك من أجل الحياء . فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة
فى هذه الصفة وانظر ما أنعم الله به من النطق الذى يميز به عنه
البهائم . فيعبر بما فى ضميره ويفهم عن غيره ما فى نفسه ، وكذلك
نعمة الكتابة التى تفيد أخبار الماضين للباقين ، وأخبار الباقين
للآتين ، وبها تخلد فى الكتب العلوم والآداب ، ويعلم الناس

ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس في أمورهم بسبب عدمها. فإن قلت : انّ الكلام والكتابة مكتسبة للانسان وليست بأمر طبيعي ، ولذلك تختلف الخطوط بين عربيٍ وهنديٍ وروميٍ الى غير ذلك، وكذلك الكلام هو شيء يُصطلح عليه ، فلذلك اختلف ، قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدي به ليس بفعل الإنسان ، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدا ، فسبحان المنعم عليه بذلك . وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبدا ، فسبحان المنعم عليه بذلك ثم انظر الى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها وما خلق فيه من الحسد فبه يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين فان جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين ، بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر ، وفي الحسد على الغبطة ، وهي إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره ، ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضا صلاحه فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة ، فان الخلق أول ما يخلق ضعيف ، فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمروا لم يكن له محل يأوي اليه ولا آلة ينتفع بها ، فكان الأمل سببا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين ، وهكذا يتوارث الى يوم الدين ، ومنع الانسان من علم اجله ومبلغ عمره لمصلحة ، فانه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهن الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمرة أرض ولا لغير ذلك ، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عن ما يؤديه الى إتلافه ، فكان وجله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ، ومبادرة صالح

الأعمالِ قبل الفوات ، ثم انظرْ الى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمةِ على اختلاف طعومها ، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها ، وأصنافِ المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيورٍ يلتذ بسماعها ، ونقودٍ وجواهر يقتنيها ويصل بها الى أغراضه ويجدها فى مهماته ، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرثٍ وحملٍ وغير ذلك وأزهارٍ وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها ، وأصنافٍ من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهمِ ، فانظرْ ماذا ركّب الله فيه من العجائب ، ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد فى تملّكِ ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغنى ، فيكون ذلك سببا لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرّهم فى غالبِ الأحوال فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبى فانه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرّغ فيكون فراغه وبالا عليه وكم عسى أن يعدّ العادّ من الحكم واللطائف التى يقصد بها قوام العالمِ وعبادته الى الأجل المعلوم وهى مما لا تدخل تحت حدٍ ولا يحصرها عدّ ، ولا يعلم منتهى حقائقها واحصاء جملتها الا الحكيم العليم الذى وسعت رحمته وعلمه كل شىء واحصى كل شىء عددا .

❁ خاتمة لهذا الباب ❁

اعلم أن البارى سبحانه وتعالى شرّف هذا الادمى وكرمه . سبحانه - ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا - فكان من أعظمِ ما شرّفه به وكرّمه العقل الذى تنبه به على البهجةِ وألحقه بسببه بعالمِ الملائكة حتى تأهّل به لمعرفة بارئه ومبتدعه بالنظرِ فى مخلوقاته واستدلالا له على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من حكمةٍ وأمانةٍ ، قال الله العظيم - وفى أنفسكم أفلا

تُبصرون - فكان نظره فى نفسه، وفيما أودع البارئ سبحانه فيه
من العقل الذى يُقطَعُ بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم
الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبّره وخالقه ومصوّره،
فانه ينظر فى العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم مستقرّ
المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضرّ، وهو مع القطع
بوجوده لا يُرى له شخصا ولا يسع له حسّا ولا يحسّ بحسّا ولا يشم
له ريحا ولا يُدرك صوّرة ولا طعما وهو مع ذلك آمر ومطاع وراج
زيادة ومفكّر ومشاهد الغيوب ومتوهّم للأمور: اتسع له ماضاق
عن الأبصار ووسع له ماضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيّبته
حُجُب الله سبحانه مما بين سموّاته ومافوقها وأرضه وما تحتها حتى
كأنه شاهده أبين من راى العين، فهو موضع الحكمة ومعدن العلم
كلما ازداد علما ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرّك فلا يكاد
أن يُميّز بين الهمّة بالحركة وبين التحرّك بسرعة الطاعة أيهما أسبق
وأن كانت الهمّة قبل، وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن
معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة
أكثر من الاقرار بأنه مسلّم للذى وصفه للعلم به، ومقرّ بالجهل
بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميّز بين لطائف التدبير،
ويُفرّق بين دقائق الصنع، وتجرى الأمور وقد تدبّرها، ويتوهّم العواقب
ويُمثّلها، ويدلّ على الأمور على اختلافها، فدلّ جهله بنفسه وعلمه
بما يُدبّر ويميّز أنه مركّب مصنوع مصوّر مدبّر مقهور لأنه
مع حكمته وانتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشئ فينساه
ويريد أن ينساه فيذكره ويريد أن يسرّ فيحزن، ويريد أن يغفل
فيذكر، ويريد أن يتنبّه ويتيقظ، فيسهو ويغفل، دلالة على أنه
مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبّر
لا يدرى كم مدى مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف اتساق
حروف كلامه، ولا كم مدى مبلغ نظره، ولا كيف رُكّب نوره

ولا كيف أدرك الأشخاص، ولا كم قدر قوته، ولا كيف تركّبت
إرادته وهمته؟ فاستدلّ بعلمه وبجده عن حقيقة ما علم أنه
مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدلّ على الصانع الخالق المريد
العليم عز وجلّ، ثم أنه خلق فى الانسان الهوى موافقا لطباعه،
فان استعمل نور العقل فيما أمر به وَرَد مورد السلامة، وفاز غدا
بدار الكرامة وان استعمله فى أعراض نفسه وهواها حُجب عن معرفة
أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له فى الدار الاخرة من الثواب
والحجاب والعقاب. وهو الآلة له فى عمل الصنائع وتقديرها على نحو
ما قدّرها ودبّرها فى ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق
الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة فى كل أمة زمان
واستحسان ما يحسن فى عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما
يقبح عندهم بحكم الاعتياد. فانظر ما شرّف هذا الانسان أن خلق
فيه ما يفيده هذه المعارف، فان الأوانى تتشرف بشرف ما يوضع فيها
ولما كانت قلوب العباد هى محلّ للمعرفة بالله سبحانه شرّفت
بذلك، ولما سبق فى علم البارئ سبحانه وارادته وحكمته بمصير
الخلق الى دار غير هذه الدار ولم يجعل فى قوة عقولهم ما يطلعون
به على أحكام تلك الدار، بل كمّل لهم سبحانه هذا النور الذى
وهبهم إياه بنور الرسالة اليهم، فأرسل الانبياء صلوات الله
عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته، فمدّهم
بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه، فكانت أنوار ما جاء به بالوحي
من عند الله بالنسبة الى نور العقل كالشمس بالاضافة الى نور
النجم، فدلّوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا يستقلّ بادراكه
عقولهم وأرشدوهم الى مصالح أخراهم التى لا سبيل للعباد أن
يعرفوها الا بواسطتهم، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق
ما جاءوا به ما أوجب الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم، فتمّت
بذلك نعمة الله على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته

عليهم . فانظر ما أشرف الآدمى ونسله الذين ظهرت منهم هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة ، ثم تضافرت أنوار الشرائع التى هى كالشمس ، وأنوار العقول التى هى كالنجم . فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى ، وشقاوة من كذب ولم يرد الا الحياء الدنيا . ثم أن الله تبارك وتعالى من على الانسان بأن خصه برؤيا يراها فى منامه أو فى عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهى مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه ، وكل ذلك مواهب وكرامات من جود الله سبحانه ، وجعل الله استقامته على الطاعة فى قلبه وجوارحه سببا لصدقها فى غالب الامر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها ، وهى الأمور التى انفرد الله بعلم العاقبة فيها وأطلع على بعض الامور منها من شاء .

❊ باب فى حكمة خلق الطير ❊

قال الله سبحانه وتعالى - ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله - اعلم رحمك الله : ان الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله ، وخلق فيه ما يحتاج اليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه ، فقسم لكل عضو منه ما يناسبه ، فان كان رخوا أو يابسا أو بين ذلك انصرف الى كل عضو من غذائه ما هو لائق به فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله واعانة له فى ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه واسعة الأسفل ليثبت فى موطن على الأرض ، وهى خف فيه وبعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه ، وجعل جلد ساقيه غليظا متقنا جدا ليستغنى به عن الريش فى الحر والبرد ، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه فى رعيه ، وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء ، فلو كسيت ساقه بريش لتضرر ببلله وتلويثه ، فأغناه سبحانه

عن الريش فى موضع لا يليق به حتى يكون مخلصا للطيران، وما خلق
من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة ليناول غذاءه من
غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى
لا فى البرارى ولا فى البحار حتى ينكب على صدره، وكثيرا ما يعان
بطول المنقار أيضا مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة،
ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق
صدره ودائره ملفوفا مربيا على عظم كهيئة نصف دائرة حتى
يخرق فى الهواء بغير كلفة وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة
له على الطيران، وجعل لكل جنس من الطير منقارا يناسب رعيه،
ويصلح لما يغتذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك، فمنه
مخلب للتقطيع خص به الكواسر، وما قوته اللحم ومنه عريض
مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقا محكما، ومنه معتدل
اللقط وأكل الخضر، ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلبا
شديدا أشبه العظم، وفيه ليونة ما هى فى العظم لكثرة الحاجة
الى استعماله وهو مقام الاسنان فى غير الطير من الحيوان، وقوى
سبحانه أصل الريش، وجعله قصبا منسوبا فيما يناسبه من الجلد
الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران، ولأن حركة الطيران
قوية فهو محتاج الى الاتقان لأجل الريش، وجعل ريشه وقاية
مما يضره من حر أو برد ومعونة متخللة الهواء للطيران وخص
الأجنحة بأقوى الريش وأنبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة اليه
وجعل فى سائر بدنه ريشا غيره كسوة ووقاية وجمالا له وثبت
أصل جميعه لانه جبيرته وجملته، وجعل فى ريشه من الحكمة
أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه فان أصابه ماء كان أيسر
انتفاض يطرد عنه بلله فيعود الى خفته وجعل له منفذا واحدا
للولادة وخروج فضلاته لاجل خفته، وخلق ريش ذنبه معونة
له على استقامته فى طيرانه، فلولاه لما مالت به الأجنحة

فى حال الطيران يميناً وشمالاً فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي
يعدل بها سيرها، وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته. ولما
كان طعامه يبتلعه بلعًا بلا مضغ جعل لبعضه منقارًا صلبا يقطع
به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية، وصار يزدرد مما يأكله صحيحا
وأعين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحنا يستغنى به عن
المضغ وثقل الأسنان، واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فانه يخرج
من بطون الحيوان صحيحا وينسحق فى أجواف الطير، ثم أنه خلقه
يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران، فانه لو خلقت فراخه فى
جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها، وتعوق عن النهوض للطيران أفلا
ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة. انظر الى من
أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة، من ألهمه
أن يلتقط الحب، فاذا ماع فى باطنه غذى به أفراخه وهذا نوع من
الطير، ثم انظر مع هذا كيف احتمل هذه المشقة، وليست له
روية ولا فكر فى عاقبة ولا له أمل يأمله فى أفراخه كما يأمل
الانسان فى ولده من العز والرفد وبقاء الذكر، فهل هذا قطعا الا
الهام الهى من فعل الله سبحانه، انظر كيف الهم معرفة حمل الأنثى
منه بالبيض، فألهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته فى موضع
التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض، ويكون
البيض محفوظا فى المهاد الذى يمهدونه ويستحسنونه فى حال تحضينه
انظر الى الحمام كيف الهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه
للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه، وان اتفق فى البيض فساد
بسبب عرق قام وتركه، ثم انظر الهامه بما يزق به فرخه، فانه
أولا يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها، ثم بعد
ذلك يزقه من أول هضم، ثم اذا ماع الغذاء فى حوصلته يزقه
به حتى يدرجه يفعل مرارًا حتى يولى حوصلته فانه لو أرسله
إليه حبًا صحيحا لعجز عن هضمه لضعف جسده، فانظر ان كان

هذا من فعل الطير وحكمته . ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة
كيف يسنده الى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك
به ، ومن الطير مما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ، ولتعلم أن
قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد بل لكل حال له حكم يقوم
بمصلحة ذلك الشيء ، وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق
بل جعلت أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة ،
ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين
خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علما بأن عدم
هذا التدبير يفسد به بيضهم ، ثم انظر الى خلق البيضة وما فيها
من الحكم لله ، ففيها المخ الاصفر الخاثر والماء الابيض الرقيق ، فبعضه
لينشأ منه جسده وبعضه يغتذى به الى أن تنشق عنه ، وما في ذلك
من التدبير المحكم العجيب ، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة
تلتقى به الى حين كماله فيها وخروجه منها ، ثم انظر في حوصلة الطائر
وما في حلقها من التدبير ، فان مسلك طعامه الى القانصة ضيق
لا ينفذ اليه قليلا قليلا ، فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الأولى
الى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما
يؤذيه ، فصار ما يحتكره احتراسا لشدة حذره فجعلت له الحوصلة
كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ،
ثم ينفذه الى القانصة على مهل ، وفيها حكمة أخرى ، فان الطير الذى
يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ، ثم تأمل ريش
الطائر فانك تجده منسوجا نسج الثوب من سلوك رقاق ، وفيها
من اليبس مما يمسك ما حولها ، ومن اللين ما لا ينكسر معه وهي خاوية
قد ألف بعضها الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط والشعر الى الشعر ،
ثم تجده اذا فتحته أعنى النسيج ينفتح قليلا ، ولا ينشق ليدخله
الريح فتثقله عن طيرانه ، وتجد في وسط الريشة عمودا غليظا
يابسا مثبتا ، قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته ، فلو عدم

ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها مايقابلها من الهواء وهي
مع صلابته بجوفة ليخف عليه طيرانه. انظر الى الطائر الطويل
الساقين والحكمة فى طولهما أنه يرعى أكثر رعيه فى ضحضاح كأنه
فوقه مراقب يتأمل مايدب فى الماء، فاذا رأى شيئا من حاجة
خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله، فلوكان قصير الساقين لكان حين
يخطو الى الصيد يصل بطنه الى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد
فيبعد عنه. انظر الى العصافير وغيرها فانها تطلب رزقها فى طول
نهارها فلاهى تفقده ولاهى تجده مجموعا محله، وهو أمر جار على
سنة الله فى خلقه، فان صلاحهم فى السعي فى طلب الرزق، فان
الطير لو وجده ميسرا أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ، فيثقل
عن الطيران ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء
الكبير فانه يأكل السمك، فاذا امتلأ منه وأزعجه مزعج تقاياه
حتى يخف للطيران، وكذلك الناس أيضا لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا
افراغا يوقعهم فى غاية الفساد. انظر الى هذه الأصناف من الطير
التى لا تخرج الا ليلا مثل البوم والهام والخفاش، فان عيشها
يتيسر فى الجو، وكالبعوض والفراش وشبهه فانها منبثة فى هذا
الجو، لجعل عيشه فى موضع أقرب اليه من الأرض، ولعل نوره
لايغنيه أن يلتقط من الأرض بدليل أنه لا يظهر فى نور الشمس
الا مختفيا، فألهم أن يعيش فى الجو من الفراش وغيره انظر الى الخفاش
لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه، وجعل له فم
وأسنان وكل ما فى البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره
على الطيران فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقتصر
على ما خلق له الريش ولا تنحصر فى نوع واحد، لانه خلق هذا
النوع، وخلق من السمك جنسا يطير على وجه البحر مسافة
طويلة، ثم ينزل الماء فسبحان القاضي العليم. انظر الى الذكر
والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة، فاذا احتاج

أحدهما الى قوته ناب الآخر الى اخر وقت الحضانة ، ثم الهمهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض اذا خرجا لنيل القوة حتى أنهما يجتمع في أجوا فهما البراز للحرص على الرقاد فاذا اضطر خروج البراز أخرجه دفعة واحدة ، ثم انظر الى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ، ولا يدعها تستقر خارجا عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه انظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها مادامت محتاجة الى الزق حتى اذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها ضارت اذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها ، ثم انظر ما خلق الله تعالى في الكوسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه ، ومن قوة المخلب وحدته في المنقار والأظفار ، فكان مخلبها مدية للقطع ، وكأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل ما يحتاجه من قوتها . انظر الى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته .

❊ باب في حكمة خلق البهائم ❊

قال الله سبحانه وتعالى - والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة - اعلم وفقك الله وإيانا : أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الاية ، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها الى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة ، وجعل ذلك تجلدا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقنها لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل ، ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الانسان حاجته ، لأنها لو كانت عمياء

صماء لم ينتفع بها الانسان ولا وصل بها الى شيء من مآربه، ثم منعت
العقل والذهن حكمة من الله لتذل للانسان فلا تمتنع عليه اذا
أكدها عند حاجته الى إكدادها فى الطحن، وحمل الأثقال عليها
الى غير ذلك، وقد علم الله أن بالناس حاجة الى أعمالها وهم
لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها، ولو كلف العباد القيام
بأعمالها لأجدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة
لعمل شيء من الصناعات والمهن التى يختصون بعملها وخلقتهم
قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب
ولكان ذلك مع أتعابه لأبدانهم يضيق عليهم معايشهم فكان
قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة. انظر فى خلق
أصناف من الحيوان وتهيئها لما فيه صلاح كل صنف منها، فبنو
آدم لما قدروا أن يكونوا ذوى علاج للصناعات واكتساب العلوم
وسائر الفضائل ولا غني لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير
ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر، وخلقت لهم
الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الاشياء ومحاولات
الصناعات، وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد
ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب.
وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد
خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الارض اذا جالت فى
طلب المرعى، ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص
القدمين لتنطبق على الأرض وتهيأ للحمل والركوب. تأمل التدبير
فى خلق آكلات اللحم من الحيوان كيف خلقت ذوات أسنان
حداد وتراس شداد وأفواه واسعة وأعينت بسلاح وأدوات
تنال بذلك ما تطلبه، فان ذلك كله صالح للصيد، فلو كانت البهائم
التى عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت
ما لا تحتاج إليه، لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم، ولو كانت

السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح
الذى به تصطاد . فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف
الحيوان مايشاكله ومافيه صلاحه وحياته . أنظر الى أولاد ذوات
الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لاتحتاج إلى
تربية وحمل كما تحتاج الآدميون إذ لم يجعل فى أمهاتها ما جعل
فى أمهات البشر من العقل والعلم والرفق فى أحوال التربية والقوة
عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك وغيره، فلذلك أعطيت
النهوض والاستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل
الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة، ومما
كان منها ضعيفا لانهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل فى
الأمهات عطفا عليها، فصارت تعين الطعام فى حواصلها، ثم تمجه
فى أفواه فراخها ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل، فكل أعطى من
اللطف والحكمة بقسط . فسبحان المدبر الحكيم. انظر الى قوائم
الحيوان كيف ينتقل أزواجا لتتهيأ للمشى، فلوكانت أفرادا لم تصلح
لذلك، لان الماشى ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده
على ما ينقله منها، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى،
وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين، وكذلك من خلاف لأنه
لوكان ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من
الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولوكان يرفع يديه
ويتبعها برجليه لفسد مشيه، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه
على اليسرى من مؤخره، ويعتمد الآخرين من خلاف أيضا فتثبت
على الأرض ولا تسقط اذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي
والاعتماد . أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن، والفرس
مردعا منها، والبعير لاتطيقه عدة رجال لو استعصى، وينقاد لصبى
صغير، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه
ليستحرثه، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة

فى الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبى واحد
فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها،
وربما أعجزت طالبها، وكذلك جميع الحيوان المسخر للانسان، وما
ذلك ألا لأنها عدمت العقل والتروى. فكان ذلك سببا لتذليلها
فلم تلتو على أحد من الناس وان أكدها فى كثير من الأحوال.
وكذلك السباع لوكانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس
وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها ولاسيما
اذا اشتدت حاجتها فى طلب قوتها ويشتد خللها ألا ترى اذ
أحجمت عن الخلق وصارت فى أماكنها خائفة تهاب مساكن
الناس وتحجم عنها صارت لا تظهر ولا تنبعث فى طلب قوتها
فى غالب أحوالها الا ليلا، فجعلها من شدة قوتها وعظم غذائها
كالخائفة من الانس بل هى ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم
فى منازلهم وضيقت عليهم فى مساكنهم ألا ترى الكلب وهو
من بعض السباع كيف سخر فى حراسة منزل صاحبه حتى صار
يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل الى صاحبه ما يؤذيه، ثم
أنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن
نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان
والجفاء، فطبع على هذه الخلال لمنفعة الانسان فى الحراسة
والاصطياد. ولما جعله البارى سبحانه حارسا أمده بسلاح،
وهى الأنياب والأظفار واللهث القوى ليذعر به السارق
والمريب وليجتنب المواضع التى يحميها، ثم انظر كيف جعل ظهر
الدابة سطحا مثبتا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة
وجعل فرجها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها إذ لو كان
أسفل باطنها كالادمى لم يتمكن الفحل منها، ألا ترى أنه لا يستطيع
أن يأتيها كفاحا كما يأتى الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير
ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فاذا كان وقت الضراب ارتفع

وبرز الفحل حتى يتمكن من اتيانها فلما لم يخلق فى الموضع المخلوق
فى الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الامر الذي به
دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر. ثم انظر كيف كسيت أجساد
البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات
وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا، وما
كان منها بغير ذلك جعلت له أجفاف تقوم مقام الحافر فى غيره
ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع تتهيأ للأعمال
كفيت مؤنة ما يضربها بأن جعلت كسوتها فى خلقتها باقية عليها
مابقيت فلا تحتاج الى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف
الآدمى. فانه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال مايقترحه
وله فى أشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة. فانه خلق على قابلة
لفعل الخير والشر وهو الى فعل الشر أميل الى فعل الخير، فجعلت
الأسباب التى يحصل بها ما هو محتاج اليه ليشتغل بها عما فيه
فساده وهلاك دينه. فانه لو أعطى الكفاية فى كل أحواله أهلكه
الأشر والبطر. وكان من أعظم الحيوانات فسادا فى الأرض ولتصرف
بعقله الذى هو مخلوق لينال به السعادة الى ما فيه شقاوته. ثم
ان الادمى مكرم يتخير من ضروب الملابس ماشاء، فيلبس منها
ماشاء ويخلع منها ماشاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء
ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه فى عين من يصحبه ويحب قربته
ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه وهذا من باب النعمة عليه
والكرامة له بخلاف البهائم فانها غنية عن هذا كله. انظر فيما ألهم
الله البهائم والوحوش فى البرارى. فانها توارى أنفسها كما يوارى
الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه الى موضع
يحتجب فيه حتى يموت والا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها
فانك لو طلبت منها شيئا لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها
لقلتها، بل لو قال قائل انها أكثر من الانس لم يبعد، لان الصحارى

قد امتلأت من سباعٍ وضباعٍ وبقرٍ وحميرٍ ووعلٍ وابل وخنزير
وذئاب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير وغير
ذلك مما لا يُحصي عدده وهذه الأصناف في كل يوم يُخلق منها
ويموت منها ولا يُرى لها رِمَمٌ موجودةٌ والذى أجرى الله به
عادتها أن تكون في أماكنها، فاذا أحست بالموت أتت الى مواضع خفية
فتموت فيها. فانظر هذا الأمر الذى أُلهمت له هذه الاصناف في
دفن جثتها بما فُطرت عليه وشخّص لبني آدم بالفكر والتروى
تأمل الدوابّ كيف خُلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها
فلا تصدم حائطا ولا تتردّى في حُفرةٍ، واذ قربت من ذلك نفرت
منه وأبعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه أليس
الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها ليُنتفع بها؟ ثم انظر
الى فمها مشقوقا الى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعى
ولو جُعل كفم الانسان لم تستطع أن تتناول شيئا من الأرض
وأُعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها فأُلهمت قصم ما
فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا اصلاح انظر ما كان من
البهائم كيف يمزّ الماء في شربه مزّا وكيف خُلقت فيه شعرات حول
فمه يدفع بها ما في شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش
ويحركها تحريكا يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه، فتقوم
لها هذه الشعرات مقام فم الانسان. ثم انظر الى ذنب البهيمة
وحكمته، وكيف خُلق كأنه غطاء في طرفه شعر، فمن منافعه
أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها، ومنها ان ما بين
دبرها وطرق بطنها أبدا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب
والبعوض، ويجتمع أيضا على مؤخرها، فأعينت على دفع ذلك
بتحريك ذنبها. فصار كأنه مذبة في يدها تذبّ بها وتطرد عنها
ما يضر بها، ثم انها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من
الذباب أيضا، ثم ان الدابة أيضا أُعينت بحركة مختصة، وذلك

أن الذباب اذا وقع عليها فى مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكا تطرد به الذباب وغيره عنها وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين، ومن الحكمة فيه أيضا أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضا بالحمل لبدنها والتصرف، فجعل لها فى تحريك ذنبها منفعة وراحة وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها. ومن الحكمة فيه أن البهيمة اذا وقعت فى بركة أو مهواة أو وحلت فى طين أو غيره. فلا تجد شيئا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها، ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها، فيكون مسكها بذنبها فى هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها الى غير ذلك من مصالح لا يعلمها الا الحكيم العليم. انظر الى مشفر الفيل، وما فيه من الحكمة والتدبير فانه يقوم مقام اليد فى تناول العلف وايصاله إلى فمه، فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئا فى الارض، إذ لم يجعل له عنق يمده كسائر الأنعام، فلما عدم العنق فى هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير. انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء الى فمه ومنخرا يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه. انظر الى خلق الزرافة لما كان منشؤها فى رياض شاهقة خلق لها عنقا طويلا لتدرك قوتها من تلك الأشجار. تأمل فى خلق الثعلب فانه اذا حفر له بيتا فى الأرض جعل له فوهتين احداهما ينصرف منها والاخرى يهرب منها إن طلب ويرفق مواضع فى الأرض فى بيته، فان طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه فى المواضع التى رفقها، فخرج من خير المنافذ وهي المواضع التى تحتها. انظر ما خلق الله تبارك وتعالى

في جبلته لصيانة نفسه . وجملة القول في الحيوان : أنّ الله
تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق ، فما كان منه ينتفع
الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات
وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقادا
مذللا على صورة يتهيأ منه الحمل ، وما كان منه ذا غضب وشرّ
الا أنه قابل للتنظيم اذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم
ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد تقدم ذكرها
ومن جملة ذلك الفيل فانه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس
والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب ، ومنها ما له غضب
وشرّ الا أنه متأنّس بالانسان لمنفعته كالهرة ، ومن الطير ما للناس
به انتفاع لما فيه من الألفة والتأنس ، فمن ذلك الحمام يألف
موضعه فسهل بسببه الاخبار بسرعة اذا دعت حاجة الى ذلك
وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام
ينتفع به ، ومن ذلك البازي ، فان طباعه تنتقل الى التأنس ، وان
كان في طبعه مباينا الا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل
فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق
أصحابه وقت الصيد ، وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم .

باب في حكمة خلق النحل والنمل
والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك .

قال الله سبحانه وتعالى - وما من دابة في الارض ولا طائر يطير
بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم
يحشرون - انظر الى النمل وما ألهمت له في احتشادها في جمع
قوتها وتعاونهم على ذلك واعداده لوقت عجزها عن الخروج
والتصرف بسبب حرّ أو برد ، وألهمت في تقلب ذلك من الحزم
ما لم يكن عند من يعرف العواقب ، حتى تراها في ذلك اذا عجز

بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذى لا يتم الا بالتعاون، ثم انها ألهمت حفر بيوت فى الارض تبتدئ فى ذلك باخراج ترابها وتقصد الى الحب الذى منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض، فما خلق هذا فى جبلتها الا الرحمن الرحيم، ثم اذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم أنها لا تتخذ البيوت الا فيما علا من الأرض خوفا من السيل أن يغرقها، ثم انظر الى النحل وما ألهمت اليه من العجائب والحكم، فان البارى سبحانه جعل لها رئيسا تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها، فان ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الاخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق، لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجا افترق النحل خلفهما، ثم أنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الازهار فيستحيل فى أجوافها عسلا، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى، وفيه غذاء وملاذ العباد، وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى ادم، فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك، ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس، ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع فى أرجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه، فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح، فانظر فى هذه الذبابة: هل فى علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسد فيها، ثم انظر لخروجها نهارا لرعيها ورجوعها عشية الى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها، ولها فى ترتيب بيوتها من الحكمة فى بنائها

حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها متباعدا عن مواضع العسل، وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه. انظر الى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة، فان الله خلق فى جسدها رطوبة تنسج منها بيتا لتسكنه وشركا لصيدها فهو مخلوق من جسدها وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف الى تقويم جسدها والى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدا مثل الشرك وفى ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك، فاذا أحست أن شيئا من ذلك فى شركها خرجت اليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت الى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات، وان كانت مستغنية فى ذلك الوقت شكلته وتركته الى وقت حاجتها. فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها، فبلغت فى ذلك ما يبلغه الانسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لاصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا، ثم انظر من العجائب دود القز، وما خلق فيه من الأشياء التى يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها، فان هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه، فان هذا الحيوان الذى يخلق من جسمه الحرير، وذلك أن صورة البزر تحضن حتى اذا حمى عاد دودا كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيغتذى منه، فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث الى غزل نفسه جوز الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير، ويصير هو جسما ميتا لا حياة فيه، ثم انظر فان البارى سبحانه لما اراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله، فعند ما ينتهى من غزل الحرير ويعفى ذلك الجسم يقلبه الله الى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو فى رأى العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر

من الأنثى ، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحمل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذى حضن أولا، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع اذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر. فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى يرتب منه، ومن ألهمها الى غزل أجسادها حريرا حتى يعني فيما غزلته. ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الاولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع ثم انظر ما يسره البارى سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بنى ادم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر هذا التسخير العجيب فى هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات سبحانه لا إله الا هو العلي العظيم. ثم انظر الذبابة وما أعينت به فى نيل قوتها ، فانها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضربها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين ، فان أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما، وذلك لرقة أجنحتها، ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب، لأنهما بارزتان عن رأسها، وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببنى أدم ويقع عليهم دائما وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم البارى سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم. تأمل كثيرا من الحيوان الصغير عند ما تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به، ويبقى على ذلك ساعة، ثم يتحرك ويمشى، وهل ذلك الا لأن ما يصطاد انما يصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته، فاذا كان شبيها بالجماد ترك كما تترك سائر

الحجارة . تأمّل العقاب عند ما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر
ولا يجد فيها موضعاً لأكله . فيصعد بها في مخاليه حتى إذا أبعد
من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وارسلها فتهشمها الوقعة
فيسقط عليها فيأكلها . فانظر كيف أُلهم الطريق في نيل قوته من
غير عقل ولا روية . انظر الى الغراب لما كان مكروها خُلق في طبعه
الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده ، وأُلهم
الاحتيال في إخفاء عشّه لصون فراخه وقلّ احتفاله بالأنثى خشية
أن تشغله عن شدة حذره ولذلك قلّ أن يُرى مجتمعا مع أنثى ،
فهذا أبدا دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة . وتراه مع البهائم على
خلاف ذلك فيقف على ظهرها ويأكل من دم البعير ، ومن أرواث
الدواب وقت تبرزها ، واذا وجد شيئا من قوته وأكل منه وشبع
دفن باقية حتى يعاوده وقتا اخر . فما خلق هذا في طبعه ودبّره
بهذا التدبير العجيب الا الله . لأنه لا عقل له ولا روية . انظر
الى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها
وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها ، فانها ترى ما تقتات به في
الأرض مع علوها في الجو فتنحط نحوه بسرعة ، وأُلهمت معرفة
من هو مقبل ، ومن هو مدبر فتخطف ما تخطفه من الناس من
ورائهم ، ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه ،
وأُعينت لما كانت غذاءها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب
كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه ، فسبحان المدبّر
الحكيم . انظر الى الحيوان المسمّى حرباء وما فيه من التدبير ، فانه
خُلق بطيئا في نهضته ، وكان لا بد له من قوته ، فخلق على صورة
عجيبة . فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك
صيده من غير حركة في جسده ولا قصد اليه ويبقى جامدا كأنه
ليس من الحيوان . ثم أُعطي مع السكون وهو أنه يتشكل في لون
الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ، ثم اذا قرب

منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة
خفوق البرق، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة، وجعل
الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه
فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة، واذا رأى ما يريعه ويخيفه
شكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه
فانظر هذه الاشياء التى خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها،
انظر الى الحيوان الذى يسمى سبع الذباب وما أعطى من الحيلة
والرفق فيما يقتات به، فانك تجده يحس بالذباب قد وقع قريبا
منه فيركد مليا حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به، فاذا أحس
أن الذباب قد اطمأن دب دبيبا رقيقا حتى لا ينفره حتى اذا صار
قريبا منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه، فاذا أخذه
اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب، فلا يزال
قابضا عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيغتذى منه
بما يلائمه، فانظر الى هذه الحيلة من فعله أوهى مخلوقة من أجل
رزقه فسبحان البارى الحكيم. انظر الى الذر والبعوض الذى
أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل فى كتابه، هل تجد
فيها نقصا عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها
وبصر تقصد به موضعا تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها
واخراج فضلته. وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت، وهل يمكن
أن يكون القوت فى غير محل واحد، واخراجه. فضلته من غير منفذ
ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم، فسواها وقدر أعضاءها
واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها، وكله دليل على
علمه وقدرته وحكمته البالغة. فهى بعوضة صغرت فى لنظر،
ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة، فمن دونهم
من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم
الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها فى أعضائها

لما قدروا على ذلك الا تظاهرًا لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر، ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف رُكبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دمًا وهو الذى منه غذاؤها، ولولا معرفتها به لم تدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتها التى قصدت بها أن تطير الى الموضع الذى الهمها ربها أن فيه غذاءها. وكيف خرق سمعها، وكيف سمعت حس من يقصدها، وكيف عرفت أن نجاتها فى الفرار اذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون؛ ولو جزؤها ما ازدادوا فى أمرها الا عمى وبعدًا عن المعرفة، فهذه الحكمة والقدرة فى بعوضة، فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوًا كبيرا.

باب فى حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى - وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا - انظر واعتبر بما خلق الله تعالى فى البحار والانهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال، وما فيه من الآيات البينات، فانه تعالى لما جعل مسكنه فى الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لأنه لا يتمشى وهو منغمس فى لجة الماء، وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعتدى عليه وما يؤذيه، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهى القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلدا غليظا متقنا يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره، وخلق له بصرًا وسمعا وشما ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه وانظر كيف أعطى فى قعر البحر ما يناسبه فى نيل القوت والهرب مما يضره، ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره،

وجعل أكثر اصنافه يحمل، ولم يجعل الحمل منه مخصوصا بالأنثى
دون الذكر لحيوان البر بل جعل الذكر والأنثى جنسا واحدا يخلق
فى بطونها مرة واحدة فى وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة
على عدد لا يحصر، فيخلق من جوف واحدة عددا لا يحصى، ومن ذلك
من كل بزرة حوتا من الجنس، ومن جنس آخر يخلق فى الانهار وغيرها
بغير توالد فيخلق منها أعدادا لا تحصر دفعة واحدة، ومنه صنف
يتوالد بالذكر والأنثى، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل
السلحفاة والتمساح وماشاكلهما فيتوالد منهما بيض، فاذا
فقس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس،
ولما علم الله سبحانه وتعالى ان السمك فى البحر لا يمكن أن يحضن ما
يخرج من بزره ألقى الروح فى بزر جميعه عند ما يولد فيجد فيه جميع
ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر الى
أحد فى كمال خلقه. فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لا يمكن حضانته
فى البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلا بنفسه مستغنيا
عن ذلك كله. ثم ان الله سبحانه كثره، لأن منه قوت جنسه وقوتا
لبنى ادم والطير فلذلك كان كثيرا، ثم انظر الى سرعة حركته وان لم
تكن له آلة كغيره من الحيوان. وانظر الى حركة ذنبه وانقسامه،
وكيف يعتدل بذلك فى سيره كما تعتدل السفينة برجلها فى سيرها
وخلقت أرياشه ألواحا من جانبيه ليعتدل بهما أيضا فى سيره
فهو بمنزلة المركب وانظر الى عظامه كيف خلقت مثل العمد
يبنى عليها، ففى كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل
لذلك العضو. فهو كانشاء المركب يمتد العظم الجافى الذى هو قوته
ويخرج من اضلاع الى مراقى البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج
اليه من الأمر به قوامه. وانظر الى ما كان منه كاسرا كيف أعين
على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى
انه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر الى ما خلق الله فى البحر ضعيفا قليل الحركة مثل أصناف
الصدف والحلزون كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن
الذى هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتا
وسكنا، وجعل ما يوالى جسده ناعما أنعم ما يكون، وربما ضر
ببيت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة
وأصناف منه خلقت فى محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها
لتغلقها ولا يضيق مسلكها، فجعل الله لها من الجبال والحجارة
مغطا، وجعل لها أسبابا تلتصق بها فى الجبل فلا يستطاع اخراجها
الا بغاية الجهد وجعل لها قوتا من رطوبة الجبل تتأتى حياتها
بذلك. وأما الحلزون الذى بيته كأنه كوكب فانه يخرج رأسه
يرعى، فاذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه فى بيته وختم عليه
بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة.
فانظر هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئا، واعلم أن الله حافظ
لما فى البحار وما فى الآكام والجبال. فتبارك الذى أعطى كل شيء
خلقه ثم هدى. وانظر الى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير
منها والجافى فى الأعماق، وخلق الله فى جوفه صبغا كأنه حبر وهو
يخلق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن فى الضرع، فاذا أحس
بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب فى الماء الذى
تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء فعل
الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح اخرى لا يعلمها
الا خالقها. انظر الى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل
أجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الأنواع من موضع الى موضع
فى الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر.
انظر الى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرا ما يكون
فى الأنهار، وجعل الله فيه خاصية تصونه اذا اقتربت منه يد
من يأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه

بذلك السبب ، فلو مُلئت الكتب بعجائب حِكَم الله في خلق واحد
لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل
نوع تنبيه يشير الى أمر عظيم

باب في حكمة خلق النبات
وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى - أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء
ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله
مع الله بل هم قوم يعدلون - انظر وفقك الله وسددك الى ما على وجه
الارض من النبات وما في نظره من النعم في حسن منظره وبهجته
ونضارته التي لا يعد لها شيء من مناظر الأرض ، ثم انظر الى جعل
الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي
لا تحصى ، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقا لحفظ أنواع النبات ، وجعل
الثمار للغذاء والتفكه والأتبان منها للعلف والرعي والحطب للوقود
والأخشاب للعمارة وانشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها
والورق والازهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب
من المصالح لا تحصى أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض
ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها لكان يحصل من الخلل
في عدم الأخشاب والحطب والأتبان وسائر المنافع ، وان وجد
الغذاء بالثمرات والتفكه بها ، ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات
حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة واكثر من ذلك
وأقل ، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل
أدخر للأمور المهمة والزراعات ، وذلك في المثال كملك أراد عمارة
بلدة فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه وفضلة يتقوتون بها
الى ادراك زرعهم ، فهذه هي الحكمة التي أعمّ الله بها البلاد
وأصلح بها العباد ، وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف

ثمراتها حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله
العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يُدّخر ويُغرس فيه ومجنسه
ويُؤمن انقطاعه، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة
ينقطع فلا يوجد ما يخلف، تأمل في هذه الحبوب فانها تخرج في أوعية
تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها الى أن تشتد وتستحكم كما
تخلق البشيمة على الجنين، فاما البزر وما أشبهه من الحبوب فانه
يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير
فانظر كيف حُصنت الحبوب بهذه الحصون وحُجبت لئلا يتمكن
الطير منها فيصيب بها، وإن كان يناله منها قوته الا أن حاجة
الادمي أشد وأولى تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات،
فانها لما كانت محتاجة الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم
تخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل اليها غذاءها
جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتجذب الماء من الأرض، فتغتذي
بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار، فصارت
الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه
الملتقمة لها، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف
الحيوان من أمهاتها ألم ترى الى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد
بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل
فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة الى كل
جانب تمسكه وتقيمه، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية
لاسيما في الرياح العاصفة. فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت
حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته
وتأمل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة
فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك
الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا عجيبا، لو كان مما يصنع بأيدي
البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة وكان

يحتاج فيه الى آلات وطول علاج . فانظر كيف يخرج منه في المدة
القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة
الا قدرة الباري وإرادته وحكمته، ثم انظر تلك العروق كيف
تخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل اليه المادة وهي بمنزلة
العروق المبثوثة في بدن الانسان لتوصل الغذاء الى كل عضو منه
وأما ما غلظ من العروق فانها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا
ينتهك ويتمزق . ثم انظر الى العجم والنوى والعلة فيه، فانه
جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه اذا عدم ما يغرس أو عاقه
سبب فصار ذلك كالشئ النفيس الذي يخزن في مواضع شتى
لعظم الحاجة اليه، فان حدث على الذي في بعض المواضع حادث
وجد منه في موضع آخر، ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها
ولولاه لسرحت وسرح الفساد اليها قبل إدراكها ، وفي بعضها
حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح ثم انظر الى ما
خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة
والهيئة التي تخرج عليها، وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع
للعباد ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب
كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته الا
الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه . ثم انظر كيف حفظ
الحب والنوى بصلابة، وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه
بسبب ذلك ان سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعا واذا ذخر
لوقت الزراعة بقي محفوظا . فصار قشره الخارج حافظا لما في باطنه
بمنزلة شئ نفيس عمل له صندوق يحفظه، وعند ما يوضع في
الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء، وكلما
ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء
منه الى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع
محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار بالنقل أو بغيره ويصعد

الماء في جذورها الى أعالي الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط
وميزان الحق فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المستبكة في
الأوراق لاتصال الغذاء الى جوانب الورق ما يليق بغذائها، وللثمار
غذاء صالح لها، وللأقماع واللحا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك
ما يليق به ويصلحه. فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها
ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها. ثم انظر كيف جعل
الله سبحانه خروج الأوراق سابقا لخروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة
عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء، فكانت الأوراق
ساترة لها، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس
والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير
ذلك من الفساد. ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار
والثمار والأزهار، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم
والروائح. فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير. وألوانها
ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأحضر، ثم كل لون منها مختلف الى
شديد وصاف ومتوسط. وطعومها ما بين حلو وحامض ومز ونفه
ومر، وروائحها الى عطرات لذيذات مختلفات، وقد أوضح
الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور، ويكشف
للمتأمل منه كل مستور. فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من
السر عند النظر اليها، فانها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها
وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع
الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير. فمنها ما تتقوى به
القلوب. ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة
عند تناولها، وخلق فيها بزورا لحفظ نوعها تزرع عند جفافها
وانفصال وقت نضارتها. انظر وتأمل ما في قوله عز وجل -
وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين -
فأخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتا صافيا لذيذا نافعا كما

أخرج اللبن من بين فرث ودم، وأخرج من النخل شرابا عسلا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس، ولو جمعت هذه الأشياء فى مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد . فانظر ما فيه من العبرة لذوى الأفكار، ثم انظر الى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة ، وكيف قسم البارى فى غذاء النخلة فقسم للجذور ما يصلح لها وللجريد، وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة ، وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة فى أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة فى غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى اذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء، فانشق عنها غلافها على التدريج ، وهو الذى كان حافظا لها، فيصير يفترق شيئا بعد شيء على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها، فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد ، ثم تراها فى النضج والطيب الى بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها، وتصرف فى المآرب التى هيئت لها، واعتبر ذلك فى جميع الأشجار فانك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذى فهم ولب ، فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير، فانك ترى فيها شحما مركوما فى نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى تلوينه أو البناء الذى وسع أسفله للاستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، بل تعجز الأيدى عن ذلك التداخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور، وتراه مقسوما أقساما، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله،

ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفا بغير
حواجز لم يمد بعضه بعضا فى الغذاء، فجعل ذلك الشحم خلالا له
ليمده بالغذاء الاترى أصول الحب كيف هى مركوزة فى ذلك
الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل الى الحب غذاءها
والى حبة حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لاتكدر على الاكل
ولاتعرف بها، ثم انظر مايصير من الحلاوة فى الحب من أصول
مرة شديدة المرارة قابضة، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه
عن الاضطراب وتحفظه، ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب
شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات، فإن هذا النوع من
النبات للعباد به انتفاعات وهو مابين غذاء ودواء وتدعو
الحاجة اليه فى غير زمانه الذى يجنى فيه من شجره فحفظ على هذه
الصفة لذلك، انظر الى عود الرمانة الذى هي متعلقة به كيف
خلق مثينا متقنا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية
المحتاج اليها وهي من الثمرة المختصة بالانسان دون غيره من
الحيوان. انظر الى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ
واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير، فانه لما كان عود
هذا النبات رقيقا ريانا ذا احتياج الى الماء لا ينبت الا به جعل
ماينبت به منبسطا على وجه الأرض، فلو كان منتصبا قائما كغيره
من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها
فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غايتها. فهي تمتد على وجه
الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقى
يمدها. وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق الا فى الزمن الصالح لها
ولمن تناولها، فهى له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت فى زمان
البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها. ثم انظر
الى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج الى التلقيح خلق فيها
الذكر الذى تحتاج اليه لذلك حتى صار الذكر فى النخل كأنه

الذكر فى الحيوان، وذلك ليتم خلق ما بزراعتة تحفظ أصول هذا النوع . ثم انظر ما فى النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد يفور فى البدن فيستخرج الفضلات الغليظة وآخر لاخراج المرة السوداء، وآخر للبلغم، وآخر للصفراء، وآخر لتصريف الريح، وآخر لشد البطن فى الطبيعه، وآخر للاسهال وآخر للقيء، وآخر لروائحه، وآخر للمرضى والضعفاء، وكل ذلك من الماء، فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

باب ماتستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب.

قال الله العظيم - تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا - وقال تعالى - تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض - وقال تعالى - ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته - اعلم وفقنا الله واياك أن جميع ما تقدم ذكره فى هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر فى مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته، فانك اذا نظرت الى ما هو أدنى إليك وهى نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه، ثم انك اذا نظرت الى مستقرك وهى الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر فى استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما أحيط بها من بحار زاخرات وماجرى فيها من الأنهار وما انبث فيها من أصناف النبات والأشجار ومابث فيها من الدواب الى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب، ثم إذا نظرت الى سعتها وبعد أكنافها، وعلمت عجز الخلائق عن الاحاطة بجميع جهاتها وأطرافها

ثم اذا نظرتَ فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلقِ العظيم الى
السماءِ ، وأن الأرضَ وما فيها بالنسبة الى السّماء كحلقةٍ ملقاةٍ فى
أرض فلاة وما ذكره النظّارُ من أن الشمس فى قدرها تزيد على قدر
الأرض مائة ونيفا وستين جزءا وان من الكواكب مايزيد عن
الأرض مائة مرة ، ثم انك ترى هذه النيّرات كلها من شمسٍ
وقمرٍ ونجومٍ قد حوتها السّموات وهى مركوزة فيها . ففكّر فى السماء
الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ، ثم انظر كيف ترى
الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك فى حدقة عينك
مع صغرها ، وبهذا تعرف بُعْدَ هذا كله منك وعظم ارتفاعه
ولأجل البُعد ترى هذه النيرات صغيرة فى رأي العين ، ثم انظر
الى عظم حركتها وأنت لاتحسّ بها ولاتدركها لبعدها ثم انك
لاتشك أنّ الفلك يسير فى لحظة قدر كوكب فيكون سيره
فى لحظةٍ قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل
عن ذلك . ثم فكّر فى عظم قدر هذه الاشياء ، واسمع قسم الرب
سبحانه بها فى مواضع من الكتاب العزيز فقال عز وجل
والسماءِ ذات البروج - والسماءِ والطّارق وما أدراك ما الطارق
النجم الثاقب - وقال - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم
لو تعلمون عظيم - الى غير ذلك من الآى ، ثم ترقّ بنظرك الى
ماحواه العالم العلوى من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم ،
وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن إسرا فيل
عليه السلام ، يقول جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل ، وان
العرش لعلى كاهله ، وان رجليه لفى تخوم الأرض السفلى
وأعظم من هذا كله قوله عز وجل - وسع كرسيه السموات
والأرض - فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم ، فارفع نظرك
الى بارئ هذا العظيم واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا
الخالق العظيم ، وعلى جلاله وقدرته وعلمه ، ونفوذ مشيئته

واتقان حكمته فى بريته، وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته، فمن نظر فى ملكوت السموات والأرض ونظر فى ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره، وليس للمتفكرين الى غير ذلك سبيل، وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر فى عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقينا وإذعانا لبارئه وتعظيما ثم الخلق فى ذلك متفاوتون فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية. وأعظم شيء موصل الى هذه الفوائد المشار اليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر اياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه. فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله، ثم انظر وتأمل ما نشير اليه. فانك علمت على الجملة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به الى أن بلغ المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى. واطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى. ودنا من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى. فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى، ثم أمر بأن يقول - وقل رب زدنى علما - وعلمك بمعرفته ومن عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته. وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده إنه ولي ذلك.

فهرس الحكمة في مخلوقات الله

صفحة